الفكر التربوي عند القابسي

د. أمقران يسلي

أستاذ بجامعة مولود معمري تيزي وزو

Résumé :

Il ressort de ce qui précède et grâce à notre comparaison entre les vues d'ibn Sahnoun et les opinions de Qabissi qui' Abou Hassan était en mesure d'élargir l'horizon de penser l'éducation en son temps il a d'abord soulevé la question de l'enseignement obligatoire, comme il est dans les images raccourcir les parents, et ne tient pas à l'éducation de leurs enfants, La responsabilité placée sur la communauté dans son ensemble et pourrait prendre la position Sultan à cet égard à l'intention des apprenants. Et Qabissi à notre connaissance, soyez le premier à prendre la parole dans les essais sur le terrain de mental dans le but de déterminer dans quelle mesure Rapport connaissances pour les garçons, et appelle à l'éducation des filles et il approuve et demande ainsi que pour le bien-être des enseignants et la conduite de leur travail, et peut indiquer à la distinction entre les peuples libres de l'éducation religieuse infidèle dans le début de l'appel et l'éducation des enfants musulmans dans une organisation durable et payés à la perception de la fonction de l'éducation a vu depuis l'époque de Gabès un changement et le développement, et indique que les caractéristiques de l'enseignant et a commencé sa carrière caractérisée par quelque chose de stabilité et de légitimité.

Peut-être l'accumulation de tous ces éléments, et il s'accumule dans la vision de l'éducation et un ouvre la voie à l'émergence de nouvelles attitudes à l'égard des questions d'éducation à la fin du quatrième siècle de l'Hégire.

Malgré le fait que qabissi mise à jour provient des principes du fiqh al-Maliki, un fils Sahnoun, non seulement indique le hadith, liées à l'éducation, et l'éducation, et ne pas dépendre entièrement sur la description hérité des traditions dans ce domaine, mais il se tendues et travailler son esprit et regarda les questions regarder sans les contraintes de intellectuelle cassé, et en l'absence de références religieuses et Amzhbah explicite. Tournez Qabissi sur le raisonnement et élaborer des dispositions appropriées pour les situations d'urgence, on peut dire, donc, que la pensée de Gabès éducatif porte les germes de perceptions imposées par les transformations historiques qui ont commencé en secouant les piliers des communautés musulmanes au début de la cinquième siècle de l'Hégire.

Et que les chercheurs devraient accorder plus d'attention aux autres aspects du travail de cette faqih sont dignes de la recherche et de l'exploration, en particulier dans le domaine de l'éducation.

الكلمات الدالة:

القابسي، التربية، القرآن، السنّة.

تمهيد:

قبل الحديث عن آراء القابسي التربوية ومناقشتها أرى أنه من المفيد أن أعطي نبذة وجيزة عن حياته وعن آثاره العلمية والأدبية.

التعريف به:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري من كبار أئمة الحديث والسنة. ولد بالقيروان سنة 324هـ/935م[1]، ويعد القابسي إلى جانب ابن أبي زيد القيرواني من أبرز فقهاء المالكية في دولة بني زيري، وفيما تميّزت ثقافة ابن أبي زيد بالفقه والنظر غلب الحديث والزهد على مناحي تفكير القابسي الذي يعتبره بعض الدّارسين أحد زعماء المذهب الأشعري بإفريقية[2].

جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض أن القابسي لم يكن قابسيا، وإنما كان له عمّ يشّد عمامته بشد قابس فسمي بذلك وهو قيرواني الأصل.

ويروي الدّباغ أن هذا القول فيه نظر، وقد يكون أصله من المعافرين، وهي قرية قرب قابس[3].

ومهما تختلف الآراء حول نسب القابسي، فإنه نشأ وتعلم وعمّت شهرته، انطلاقا من القيروان[4].

وقد سمع القابسي بإفريقية عن ابن العباس الأبياني وابن مسرور التُجيبي وابن مسرور الغسّال ومن اليحصبي السّدري وأبي الحسن الخولاني ومن ابن مسرور العبدي ثم رحل إلى المشرق سنة 352هـ، وفي سنة 353هـ قام بفريضة الحج ثم عاد إلى مصر فأقام يُسمع الحديث وبعد رحلته إلى المشرق عاد إلى القيروان سنة 357هـ، وسمع منه خلق كثير منهم: أبو عمران الفاسي وأبو بكر بن عبد الرحمن وأبو القاسم اللبيبدي وأبو عبد الله المالكي وغيرهم[5].

- يذكر ابن بشكوال أن الرّحّالين كانوا يقصدونه بكثرة ويلحّون في سماع الحديث والفقه منه، وينقل هذه الرّواية عن أبي القاسم حاتم بن محمد، "كنا عند أبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي في نحو ثمانين رجلا من طلبة العلم من أهل القيروان والأندلس[6].

والقيروان آنذاك كانت دار السنة، وحفظ علوم الشريعة من سائر أنحاء المغرب الإسلامي[7].

ويذكر القاضي عيّاض أن القابسي كان "فقيها، أصوليا متكلما مؤلفا مجيزا، وكان أعمى لا يرى شيئا"[8]. لكن الدّبّاغ ينفي هذا بحجة أن القابسي لم يخلق أعمى وإنما عمي في آخر عمره، ونحن نميل إلى هذا الرأي.

أما الإفتاء عند القابسي فتذكر بعض الروايات أنه لم يجلس للفتاوي عن طيب خاطر قال الشيرازي: "جلس القابسي مجلس ابن شبلون بعد وفاته وقال ابن سعدون لمّا طلب للفتوى وعزم الناس عليه تأبّى وسدّ بابه دون الناس فقال لهم: اكسروا عليه بابه لأنه قد وجب عليه فرض الفتيا، بحجة أنه أعلم ممّن بقى من القيروان[9].

وكانت للقابسي مواقف جريئة تجاه الحكام، وتدلنا هذه الحادثة على قوة نفاذ السلطة المعنوية التي تتمتع بها علماء ذلك العصر: وعلى إثر قتل النصراني ابن أخي حاضنة باديس صاحب القيروان الذي افتض صبية شريفة، أراد باديس الانتقام من العامة فبعث بقائده إلى المهدية ولكن القائد مات قبل أن ينفذ أمر باديس خاف هذا الأخير خوفا شديدا لما علم أن قائده مات "بدعاء أبي الحسن الذي بعث إلى أبي عمران الفاسي وأبي عبد الله المالكي وإلى غيرهم من العلماء طلبا منهم قراءة رسالته هذه بالجامع: " بسم الله الرحمن الرحيم، بالله أستعين وعليه أتوكل، الغوث! الغوث! بما حل بالمسلمين من الاقتيات عليهم وفي فصل منها كيف يحل لمن يعتقد الإسلام أن يقوم في دم كافر افتض صبية من سلالة المصطفى صلى الله عليه وسلم. ولو انطبقت السماوات والأرض من أجل هذا الفعل لكان قليلا"[10].

ويضيف الدّباغ أن الرؤساء لمّا سمعوا ذلك قال بعضهم لبعض "والله ما السلطان إلا هذا الشيخ".

وكان لوفاة القابسي وقع كبير لدى عامة الناس وخاصتهم، "فضربت الأخبية على قبره وبات عليه عالم كثير ورثاه الشعراء بنحو المائة مرثية وأقيم المبيت على قبره وأنشدت المراثي سنة كاملة[11].

مكانته العلمية ومؤلفاته:

لقد أثنى رجال الدين والمؤرخون على القابسي ثناء عظيما إذ يعتبرونه عالما عاملا جمع العلم والعبادة والورع والزهد والإشفاق والخشية ورقة القلب ونزاهة النفس ومحبة الفقراء، حافظا لكتاب الله ومعانيه وأحكامه، حافظا للسنة عالما بعلوم الحديث والفقه واختلاف الناس. سلم له أهل عصره ونظرائه في العلم والدين[12]. وقد أشغلته العبادة عن التأليف الغزير حسب الدباغ وابن ناجي لأن أوقاته كلها كانت عامرة بالخير، ويذكر صاحب معالم الإيمان، أن من تصنيفاته الكتاب الممهد الذي بلغ فيه إلى ستين جزءا ومات ولم يكلمه، وكتابه هذا جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه، وأجازه لجماعة، منهم أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني المقرئ، وله كتاب المُلخص المنبه للفطن والمبعد من شبه التأويل، ورسالة في الاعتقادات، والرسالة الناصرة، ورسالة في الذّكر والدّعاء، ورسالة

أحمية الحصون، وكتاب المناسك والرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين وهي التي تهمنا في هذه الدّراسة.

آراء القابسي التربوية:

هناك آراء وأفكار تربوية تناولها القابسي في رسالة توضح معالم الفكر التربوي عنده ومن خلال مناقشته للنقاط التي عالج فيها الحالات والمشاكل التعليمية في عصره، وبالتحديد في دول المغرب العربي على الخصوص، تبرُز مفاهيم تربوية نلخصها كالآتي:

1- الدور التربوي للأسرة والعوامل المؤثرة فيه:

لقد نبّه القابسي إلى أن الأسرة هي المسؤولة الأولى عن وظيفة التربية، حيث تتعهد منذ البداية بتنشئة وتهيئة الفرد فتصبغه بصبغتها الدينية والأخلاقية المتشبعة بالقيم النبيلة منذ صغرهم، ويشير إلى هذا الدور التربوي الهام الذي تقوم به الأسرة حيث كانت وحدها المسؤولة عنه، عندما كانت الحياة سهلة وبسيطة، وهكذا كان الأمر في أول نشأة الدولة الإسلامية، ولأجل هذا لم يعرف عن المسلمين أو حكامهم أن احدا منهم أقام معلمين يعلمون أولادهم منذ صغرهم ويجعلون لهم على ذلك نصيبا من بيت المال، وقناعتهم هي ان ذلك شيء يخص امرهم[13].

يفهم من هذا أن مهمة التربية كانت منوطة بالأسرة حيث الأمور الحياتية والاجتماعية ظلت متميزة بالبساطة، وعندما شابها بعض التعقيد، وكثرت مشاكلها، وتعددت، وتنوعت مسؤوليات الاسرة، وانشغل الآباء بالجهاد في سبيل الدعوة الاسلامية، والتفرغ للبناء، وتأسيس الدولة الجديدة، تضاعفت أعباؤهم فشعر المسلمون عند ذاك بالحاجة إلى من يقوم عنهم بهذا الدور، فيحمل عنهم مهمة القيام بتربية أبنائهم عوضا عنهم: "واتخذوا لأولادهم معلما يختص بهم ويداومهم ويرعاهم، ويكون هذا المعلم قد حمل عن آباء الصبيان مأونة تأديبهم ويبصرهم استقامة أحوالهم وما ينمى في الخير أفهامهم.."[14].

2- الحاجة إلى مؤسسة نظامية لتعليم الصغار:

ويمكن القول هنا أنه حينما تطورت الحياة الاجتماعية في المجتمع الاسلامي وتعددت مهام مسئولياته لمس الناس الحاجة إلى قيام مؤسسات تربوية لأبنائهم وقد ساند المجتمع الاسلامي الدولة في انشاء المدارس التي كثرت وتعددت وتنوعت وكان هذا من عوامل ازدهار التعليم وانتشاره، فساعد هذا على خلق جيل حمل راية العلم والمعرفة في تلك العصور التي تمكن فيها المسلمون من قيادة مسار التقدم العلمي والثقافي.

3- مفهوم الالزام في التعليم:

لقد أشار القابسي إلى مفهوم الالزام في التعليم وفي مناقشته له تناوله في روية وفكر علمي مستخدما التسلسل المنطقي كوسيلة للوصول إلى هدفه قوله: "وأما سؤالك عن رجل امتنع أن يجعل ولده في الكُتاب هل للإمام أن يجبره؟ وهل الذكر والأنثى في ذلك سواء؟ فإن قلت لا يجبره فهل يوعظ ويؤثم؟ وكيف إن لم يكن له والد وله وصيٌ فهل يلزم ذلك بالجبر؟ فان لم يكن له وصيٌ فهل ذلك للولي أو للإمام؟ فإن كان لا احد لهذا الولد فهل للمسلمين أن يفعلوا ذلك من ماله؟ فإن لم يكن له مال فهل على المسلمين أن يؤدوا عنه؟ او يكون في الكتاب ولا يكلفه المعلم اجارة؟ وكيف ان كان له أب وله مال ولا يبالي ذلك فهل للإمام ان يسجنه او يضربه على ذلك ام ليس ذلك عليه؟ وكيف إن كان هذا في بلد لا سلطان يكرههم على الواجبات وينهاهم عن المنكرات فهل نبيح لجماعة من المسلمين المُرضين دينهم ان يقوموا مقام السلطان او ليس يجوز ذلك؟"[15]

ويرى بعض الباحثين من عرض القابسي لهذا الموضوع بأنه أول من أثار هذه المشكلة حيث لم يتعرض أحد قبله من المفكرين لتلك القضية ولم يوجد في القرآن الكريم ما يفيد بوجوب التعليم بالشكل الذي يجرى الآن، كما لم يتعرض الحديث الشريف إلى اثبات ذلك، ولم يعرف عن الصحابة والتابعين أنهم ألزموا الناس بإرسال ابنائهم إلى الكُتاب أو استجلاب المعلمين لهم[16].

ونختلف بعض الاختلاف مع وجهة النظر هذه، إذ انه من الواضح أن القابسي قد وضح ضرورة الأخذ بالإلزام لكن روح الالزام موجودة في النصوص السابقة على القابسي ومن بينها القرآن والسنة، وفيما يلي توضيح الأسباب التي تبين ذلك:

أ- إن هذه الفكرة او القضية تضمنتها مبادئ الدين الإسلامي حيث نجد كثيرا من النصوص تحمل معنى الالزام، وإن كانت لم تتناوله بالطريقة المباشرة، إي بالصورة التي نعهدها الآن، ولعل هذه الآيات والأحاديث توضح هذه الفكرة، قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ "[17]. تحمل هذه الآية الكريمة توبيخا وتهديدا لأهل الكتاب الذين أخذ عنهم العهد على ألسنة أنبيائهم ورسلهم كما تحمل تحذيرا ونذيرا للعلماء حتى لا ينهجوا نفس النهج، فيصيبهم ما أصابهم، بل عليهم أن ينشروا العلم المفيد ولا يبخلوا به ولا يكتموا منه شيئا. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا العلم ولو بالصين"،

وقوله كذلك: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي"[18] وقوله: "تعلموا الفرائض وعلموها الناس"[19].

ومعنى ذلك أن على جميع المسلمين دراسة وتعليم القرآن والسنة. ومن المعروف أن القرآن لا يلجأ في معالجة أمثال هذه الامور إلى ذكر الفرعيات، وإنما يهتم بالقضايا الكلية، والقضية الكلية في هذا الباب في القرآن، أنه على كل فرد أن يتعلم القرآن والدين وان يتفقه فيهما ما استطاع حسب طاقته، وان كل عالم وأب وولى أمر مطالب بأن يعلِّم الصغير على الأقل أساسيات دينه، وهي الفرائض وما يصح به اسلامه.

ولما كان كل فرد مطالبا بأن يؤدي ما عليه من فرائض دينية، ولما كان الأب مسؤولا عن تربية ابنه وتأديبه فإنه مطالب أيضا بأن يأمره بالصلاة إذا بلغ السابعة ويضربه على تركها إذا تجاوز العاشرة وبما ان هذه الفريضة لا يمكن أن تؤدي إلا بمعرفة شيء من القرآن الكريم، ومعنى ذلك أن الالزام أتى من خلال الالتزام بتأدية الفرائض الدينية.

4- ضرورة تفرغ الأطفال للتعلم:

ومن الأفكار التربوية التي يمكن أن تعتبر مبدأ هاما من المبادئ التربوية، الحض على عدم تشغيل الاطفال وتفريغهم للتعلم والدراسة وذلك حتى تتاح لهم فرصة التحصيل. ومن النص التالي يتضح هذا المبدأ: " قال رجل لابن سحنون - رحمه الله- ممن يطلب العلم عنده: إني أتولى العمل بنفسي ولا أشغله عما هو فيه فقال له: أعلمت أن أجرك في ذلك أعظم من الحج والرباط والجهاد[20]".

يبين هذا حرص القابسي على التعليم واهتمامه به لذلك نراه يهاجم من يعرض عن تعليم أهله تجنبا للإنفاق، أو تهاونا في ذلك، ويصف مثل هذا الاب بالجفاف والبخل[21].

وفي موضع آخر يستشهد القابسي بقول ابن مسعود الذي يذكر فيه ان صلاح المجتمع والناس عامة مرهون بثلاث قوى وهي: الدولة والدين والتعليم: "قال ابن مسعود: ثلاث لا بد للناس منهم من امير يحكم بينهم ولولا ذلك لأكل بعضهم بعضا ولا بد للناس من شراء المصاحف وبيعها ولولا ذلك لبطل كتاب الله ولابد للناس من معلمين يعلمون أولادهم ويأخذون على ذلك أجرا ولولا ذلك لكانوا أميين"[22].

وواضح من ذلك ان التعليم يلعب دورا هاما وضروريا في حياة وصلاح المجتمع وتطوره وعاملا مساعدا في صلاح الناس.

5- رأيه في تعليم البنات:

يقف القابسي من تعليم البنات موقف الخصم، ويعتبر أن تعليمهن القرآن والدين أمر حسن، ومن مصلحتهن ولكنه يعتبر تعليمهن الكتابة والشعر وما اشبهه أمرا ضارا لهن يخشى عليهن من تعليمهن إياه، فهو اذن، يميز بين ما يصلح لتعليم البنات وما لا يصلح لهن على أساس ان بعض التعليم يعرضهن للفتنة والبعض الأخر يحفظ عليهن سلامتهن"[23]

ويرفض القابسي التعليم المختلط للأطفال، ويرى أن عدم الاختلاط يساعد على سلامة سلوك الصبيان ويؤمنهم بالتالي عدم الانحراف اخلاقيا، لذلك يطالب المعلم بألا يخلط بين البنين والبنات قوله: "ومن صلاحهم ومن حسن النظر لهم ألا يخلط بين الذكران والإناث، وقد قال سحنون: أكره للمعلم أن يعلم الجوارى ويخلطهن مع الغلمان، لأن ذلك فساد لهن"[24].

ويهتم القابسي بأن يكون الشخص الذي يقوم بعملية التعليم مؤهلا متمكنا من المهارة اللازمة لمثله حتى تتم مشاركته في تحقيق العملية التعليمية بمستوى معقول.

ويتبين هذا من اشتراطه في العريف أن يكون قد حفظ القرآن وله دراية برسمه وعندئذ يمكن ان يقوم بمهنة التعليم، حيث تكون له القدرة على أن يحقق المنفعة المرجوة منه: "ولا يجعل لهم عريفا منهم إلا أن يكون الصبى الذي ختم وعرف القرآن وهو مستغن عن التعليم فلا بأس أن يعينه فإن في ذلك منفعة للصبى"[25]

وهذا النوع من التأهيل في نظره يعتبر أساسيا وحدا ادنى لتأهيل المعلم، لان المعلم قد تكون له دراية وإطلاع ببعض العلوم الأخرى، كاللغة العربية وآدابها، وعلم الحساب وغيره من العلوم.

ويهتم القابسي أيضا باستمرار المعلم في تثقيف نفسه وتنمية مهارته التعليمية وقدرته العلمية قوله: "ولا بأس أن ينظر في العلم في الأوقات التي يستغنى فيها الصبيان عنه مثل أن يصيروا إلى الكتابة ويملي بعضهم على بعض إذا كان في ذلك منفعة لهم"[26].

ويمكن أن يشبه هذا الموقف التعليمي المُدرس في المدارس التي تتبع طريقة التعيينات حيث تهيأ الفرصة لكل تلميذ أن يتعلم بطريقته ويتقدم في التعليم حسب المقرر الموضوع وأن وظيفة المعلم التوجيه والتقويم على نحو فردي إلا إذا ظهرت أخطاء شائعة بينهم جميعا، ففي هذه الحالة يلجأ إلى طريقة التعليم الجمعي.

والقابسي - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - عُرف بورعه وتقواه وزهده لذلك ينتقد بشدة بعض العادات التي كان يمارسها بعض المعلمين واعتبرها غير لائقة بهم وبمكانتهم ومن بينها سلوك بعض المعلمين التي تتمثل في إرسالهم الصبيان في بعض المناسبات الاجتماعية -

كان يتزوج أحد الناس أو ان يرزق بولد- يجمعون للمعلم الهدايا والعطايا، فقد رأى أن هذا عمل غير كريم، وأن المعلم الذي يفعل ذلك جاهل، وينبغي أن ينبه لذلك ويزجر[27].

ويدعو القابسي إلى ان يكون المعلم نموذجا حيا للصبيان في سلوكه ومعاملاته وتصرفاته متصفا بالعدل مانحا الإخاء والمساواة للجميع ولا يجعل العنصر المادي وسيلة للتفرقة بين صبيانه.

6- أجرة المعلم:

لقد ظلت قضية أجر المعلم الذي يتناوله مقابل المجهود الذي يبذله في التعليم- محل جدل ونقاش ردحا من الزمن واختلفت وجهات النظر تجاهها. واعتمد كل رأي على حجج وأدلة تسند وجهة نظره.

ويبدو اهتمام القابسي بهذا الموضوع من خلال استعراضه للآراء والأفكار التي سجلها في رسالته حيث أفاض في بحث هذا الموضوع مستعرضا وجهات نظر مختلفة حتى تمكن من إبداء رأيه وتحديد اتجاهه حول هذه القضية، ونشير هنا بإيجاز لأهم النقاط المتعلقة بهذا المشكل، ويشير القابسي إلى اختلاف العلماء بقوله: "وقد احتج كثير من علمائنا في جواز أخذ الإجارة بشرط كانت او بغير شرط إن الناس قد عَلَّموا به وأجازوه...فمن زعم أنه يكره الشرط فيه ويجيزه بغير شرط ولم يفرق بينهما؟ هل هو يكرهه إذا اشترط إلا من قبِل أنه أخذ عوضا على تعليمه القرآن؟ وإنما يجب أن يُعَلم الله أفليْس هكذا إذا أخذه بغير شرط؟ ومن علم أنه سيعطي أليس هو كالشرط؟ وإذا كان مقام التعليم مقام الصدقات التي إنما يراد بها وجه الله. كيف يصلح أن يؤخذ عليها عوض؟ هذا ما لا ينبغي ولكن ما يؤخذ على تعليم القرآن ليس معناه ان يؤخذ معارضة هكذا لعلة ما فهم المعلم من القرآن وإنما هو عوض من العناية بالتعليم والقيام لرياضته"[28].

وقد اختلفت وجهات النظر بين الفقهاء البعض منهم من يقول بعدم أخذ الأجر قدوة بالمعلم الأول محمد صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين الذين كانوا يعلمون الناس ويبصرونهم ويشرحون لهم مبادئ الدين الحنيف تطوعا وتقربا لوجه الله.

غير أن القابسي يرى أن عملية التطوع لا تؤتى ثمارها في هذا المجال، لان هذه العملية لا يقدر عليها جل الناس "وهذه عناية لا يكثر المتطوعون بها ولو انتظر من يتطوع بمعالجة تعليم الصبيان القرآن لضاع كثير من الصبيان ولما تعلم القرآن كثير من الناس فتكون هي الضرورة القائدة إلى السقوط في فقد القرآن من الصدور، والداعية التي تثبت اطفال المسلمين

على الجهالة فلا وجه لتضييق ما لم يأت به ضيق، ولا ثبت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على التنزيه عنه"[29]

ويلتمس القابسي هنا الحجج والأدلة لتأييد وجهة نظره فيورد بعض الاحاديث، وينقل آراء بعض الفقهاء في هذا الخصوص، ومن بين الاحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله"[30]. كما يناقش جواز اخذ الاجر عن بقية العلوم غير القرآن الكريم، كالفقه والفرائض فيذكر أن بعض الفقهاء يرى كراهية جواز أخذ الأجر عن هذه العلوم، إلا انه ينسب إلى بعض فقهاء الأندلس أنهم لا يرون بأسا على أخذ الأجر على الفقه والفرائض والشعر والنحو.

ويتبين من هذا العرض الموجز لوجهة نظر القابسي، انه رغم ما عرف عنه من زهد وورع، إلا أن نظرته تجاه هذه القضية كانت نظرة موضوعية متسمة بصبغة الواقعية.

والملاحظ هو أن هذه النظرة متميزة عن نظرة بعض المفكرين ممن اوتوا بعده كالغزالي: فإنه أنكر على المعلمين أخذ الاجر -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- اما ابن خلدون، فإنه لم يمانع في أخذ الاجر أيضا بل اعتبر التعليم صناعة وحرفة كبقية الصناعات وبذلك يكون قد تشابهت وجهة نظرهما في موضوع أجر المعلم.

7- المنهج الدراسي عند القابسي:

نشير هنا إلى ظاهرة ملموسة في كتابات القابسي التربوية، وتتمثل هذه الظاهرة في انه كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث النبوية، ويمكن إعتبار انتقائه هذا وتفسيره لمثل هذه النصوص نوعا من التعبير عن الرأي، وبالتالي إثبات أن ترتيبه وتفسيره لهذه العناصر المختارة نوعا من الترتيب والتفكير قدمه القابسي نفسه ولو أن هذه العناصر مأخوذة من الكتاب والسنة، ومعنى هذا أن الباحث في التزامه بهذا المنهج يمكن أن يستخلص آراء القابسي وأفكاره.

8- المبادئ الأساسية الهامة في تكوين السلوك الديني والخلقي عند القابسي:

استطاع القابسي أن يكشف المبادئ الأساسية التي تؤدي إلى تكوين السلوك الديني والخلقي السليم من خلال مناقشته لمفاهيم الايمان والإسلام حيث تناولها بالدرس والتحليل. ويرى أنه كي يصل المرء إلى الإيمان فإنه يجتاز مراحل حتى يصل إلى موقف أو درجة يُوصف بعدها بأنه مؤمن وأول خطوة يخطوها لتحقيق هذه العملية هي: الاقرار وهو عملية عقلية، إذ لا يتأتى الاقرار الحقيقي إلا من خلال عمل العقل، في مراجعة صحة او عدم صحة

الشيء المعتقد. ثم بعد ذلك يتبلور هذا الإقرار من المفهوم النظري المحصن إلى: "عمل الجوارح بما افترض عليها لأنه هو الذي يدل على استسلام من قال: أسلمت للّه ومن قال :آمنت باللّه..."[31]

ويأتي بعد ذلك عنصر آخر له دور في هذا الشأن وهو الجانب الانفعالي، حيث يقوم بدفع المرء إلى ما آمن به واعتقده.

يشير القابسي إلى مكان ذلك بقوله: "ومحل صحته التصديق فيما عقد عليه القلب واطمأن إليه"[32]

واجتماع الاقرار والعمل وتصديق القلب، واطمئنانه كل ذلك "إيمان القول يعبر عنه ولا يعلم صحة ما وراء القول من هذا المخبر عن نفسه بالإيمان إلا بالله عزوجل فإذا.... فعل بجوارحه جميع ما أمر به أنه واجب عليه فقد استسلم"[33].

والقابسي لا يفرق إذن بين الإيمان والإسلام، فيجعل الإيمان هو "القبول من الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء به يصححه اعتقاد قلبه بتصديقه، والإسلام هو العمل بما أمر به ودعا إليه والانتهاء عما نهى يصححه قلب عامله"[34]

ومن هذا يتبين أن كلا من الاسلام والإيمان يتطلب عدة شروط وهي: الاقرار، والعمل والانفعال، وبإدخال العنصر العقلي تبدو ايجابية المؤمن ومشاركته وابتعاده عن مجرد السلبية والتلقي كما يتبين كذلك أن الإيمان لا يمكن أن يكون بوجود عنصر واحد فقط من العناصر السابقة وإنما يتحقق بتكامل هذه العناصر مجتمعة ومتدرجة ومنصهرة بعضها ببعض.

ويمكن القول بأن القابسي قد ادرك عملية التكامل والترابط في هذه القضية، كما ادرك العمليات السلوكية التي يمر بها الفرد كي يصل إلى الإيمان بعقيدة أو قيمة ما، وإذا ما وصل المرء إلى مرحلة الإيمان القائم على توافر العناصر السابقة صار سلوكه يتفق مع مبادئ الدين ومن ثم اتصف بالاستقامة.

وماهية الاستقامة عند القابسي هي عبارة عن عادات سلوكية في حدود طاقة الانسان وما يحيط به من ظروف وملابسات، والاستقامة في الدين هي مداومة المقام فيه على استوائه واعتدائه لا ينكب عنه يمينا ولا شمالا ولا يلزم منه ما لا يطيقه.

لقد جاء على لسان عائشة رضي الله عنها: "أن أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدوم عليه صاحبه، وقالت أيضا: سئل النبي : أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أدومه وإن قلّ، وقال: "أكفلوا من الاعمال ما تطيقون[35] "[36].

ويستنتج من هذا النص الحث على العمل والحرص على المداومة عليه، وملازمة الفرد له من جهة، ومن جهة أخرى ملاحظة الفروق الفردية، ومراعاة الاستعداد حيث ان قدرة الأفراد واستعداداتهم مختلفة ومتباينة، وملاحظة الظروف المتغيرة المحيطة بالإنسان. وأخيرا يستنتج من هذه التعريفات السابقة: أن السبيل إلى تقويم السلوك الخلقي القويم يتطلب مرور الفرد بالعمليات التالية: الاقرار، العمل، الانفعال، تكوين العادات المتوائمة مع الظروف.

9- مسؤولية الدولة أو الحكم عن التعليم:

إن الرقابة والتوجيه في العملية التربوية عامل هام من عوامل النظام وإرسائه، فالقابسي يعتبر توجيه المعلم وإرشاده ومحاسبته أمر ضروري لسير العمل في الكتاب ولعل هذه الفكرة تدخل فيما يسمى اليوم - بالتوجيه الفني والإدارة المدرسية - ويمكن أن يستشف ذلك من قوله: "يُملى على الصبي فلا يتهجى ويرى الحروف فلا يضبطها ولا يستمر في قراءتها، معلم هذا قد فرط فيه إن كان يحسن التعليم وان كان لا يحسن التعليم فقد غرر، ورأي العلماء هنا هو أن مثل هذا المعلم يُستأهل الأدب لتفريطه فيما وُليه وتهاونه بما إلتزمه وأن يمنع من التعليم وهو صواب، إذا كان منه التفريط أو الغرور بتعليمه وهو لا يحسن.

ويرى بعضهم أن مثل هذا المعلم لا يستأهل الالزام بل يستأهل اللوم والتعنيف والغلطة، والتأنيب من الإمام العدل. فإن اعتذر المعلم بِبله الصبي واختبر الصبي فوجد لذلك لا يحفظ ما علم ولا يضبط ما فهم فلم يحصل لهذا المعلم إلا إجازة حوزه وتأديبه لا اجارة التعليم، إذا لم يعرف أباه بمكانه من فقد الفهم. لأنه لو عرف أباه فرضي له بشيء لزمه فإذا لم يعرفه فقد غره والمغرور لا يستأهل على تغريره جعلا ولا احسانا"[37].

ورأي القابسي حسب هذا النص هو أنه إذا كان يرى أن سبب التأخر الدراسي هو عدم إجادة المعلم للتعليم وجب تأديب هذا المعلم، بل وجب تعنيفه من الإمام العادل ومنعه من التعليم نهائيا.

وفي هذا إشارة إلى أن الدولة مسؤولة عن سير التعليم والمحافظة على مستواه كما أنه في حالة ما إذا تبين ان سبب القصور ناتج من ذاتية التلميذ وحتى في هذه الحالة فإن القابسي يرى أن المعلم لا يؤجر على التعليم، وقد يؤجر على التأديب، اللهم إلا إذا كان المعلم قد أَطلع والد الصبي على قصور ابنه ففي هذه الحالة يلتزم الاب بدفع الأجر إلى المعلم.

ولعل النص السابق لا يتفق مع ما يراه البعض من أن الاهتمام بالكتاتيب إنما تطور تطورا طبيعيا دون تدخل من جانب الحكومة، بل اهتم به الأفراد ذوو البر والإحسان من تلقاء

انفسهم في العصور الاسلامية المتقدمة"[38]. هكذا كان عمل الإمام القابسي حافلا بالأعمال الجليلة إلى أن وافته المنية رحمه الله سنة 403هـ/1012م تاركا وراءه ذخيرة علمية معتبرة.

الخلاصة:

يتضح مما تقدم أن القابسي في حديثه عن التعليم وأهدافه قد ركز على الجوانب الدينية والخلقية وعلى القضايا المرتبطة بالعملية التربوية والتعليمية كدور الأسرة التربوي والحاجة إلى مؤسسة نظامية، لتعليم الصغار، وضرورة تفرغ الأطفال للتعليم، ورأيه في تعليم البنت والمساواة بين المتعلمين، وعلاجه لموضوع المعلم وأجره، وبحثه لموضوع الدين والأخلاق، وشرحه للمبادئ الأساسية في تكوين السلوك الديني والخلقي، وفكرته عن مسئولية الدولة أو الحكم عن التعليم. وإنطلاقا من هذا كله.

يمكن القول بأن القابسي قد ساهم في تطوير الفكر التربوي في عصره، وبيان ذلك أنه لم يكتف بإجراء تعديلات جزئية طفيفة، بل أتى بفكر جديد بعيد كل البعد عن سلفه ابن سحنون.

ويجدر بالباحثين أن يولوا اهتماما متزايدًا إلى جوانب أخرى من أعمال هذا الرجل العظيم فهي جديرة بالبحث والتنقيب لا سيما في الميدان التربوي.

المصادر والمراجع:

[1]- محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطوي، دار الكتب الشرقية، تونس 1972م ص 47.

[2]- MR.IDRIS :« deux juriste Karrauanais de l'époque ziride » in Annales de l'institut d'étude orientales, t. XII, année 1954 fac, des lettres de l'université d'Alger. PP 168-169.

[3]- القاضي عيّاض، ترتيب المدارك، ج2 تحقيق معتب بن الأزهري الازدري القاهرة 1925 ص169-170.

[4]- الدباغ أبو عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي/ معالم الإيمان في معرفة اهل القيروان تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي ج3، ط2 القاهرة 1968م ص171-175.

[5]- القاضي عيّاض، ترتيب المدارك،ج3 مصدر سابق، ص169-170.

[6]- محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، مصدر سابق ص15.

[7]- محمد مهدي المسعودي، العلماء والمعلمون بالمجتمع المغربي في القرون الإسلامية الأولى، سلسلة علوم التربية، العدد 9 تونس 1993 ص 193. ورقمه بمكتبة العالم العربي بباريس : MAS (610)، 946.

[8]- الدّبّاغ، معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص171-175.

[9]- المصدر نفسه، ص171.

[10]- المصدر نفسه، ص115-176.

[11]- المصدر نفسه، ص179.

[12]- المصدر نفسه، ص 170-174.

[13]- القابسي، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين، دار الطباعة والنشر القاهرة 1986 ص289.

[14]- المصدر نفسه، ص296.

[15]- المصدر السابق، ص 290.

[16]- أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام أو التعليم عند القابسي، مصر القاهرة 1925 ص103.

[17]- سورة آل عمران، الآية 187.

[18]- صحيح مسلم.

[19]- رواه ابن ماجة والحاكم على ما في الفتح القدير.

[20]- القابسي، المصدر نفسه، ص290.

[21]- المصدر نفسه، ص292.

[22]- المصدر نفسه، ص 297.

[23]- المصدر السابق، ص 290.

[24]- المصدر نفسه، ص315.

[25]- المصدر نفسه، ص 231.

[26]- المصدر نفسه، ص231

[27]- المصدر السابق، ص320-321.

[28]- المصدر نفسه، ص 297-927.

[29]- المصدر نفسه، ص 296.

[30]- حديث رواه البخاري.

[31]- القابسي، مصدر سابق، ص 271-272.

[32]- المصدر نفسه، ص 271.

[33]- المصدر نفسه، ص272.

[34]- المصدر نفسه، ص 272.

[35]- رواه البخاري.

[36]- القابسي، المصدر السابق، ص277.

[37]- المصدر السابق، ص 327-327.

[38]- أسماء فهمي، مرجع سابق، ص23.